إبراهيم عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (إبراهيم:٣٧)

صدق الله العظيم

وتمضى بنا الأيام إلى أيام إبراهيم عليه السلام . .

إنها قصة بالغة الثراء، لما فيها من أحداث وشخصات ولما تركت من أثار عميقة فى تاريخ البشرية كلها .

إن آزر يتزوج «ييونا» . . وعندما يذهبان إلى أحد العرافين يخبرهما أنهما سيرزقان ولدا، وأن هذا الولد سوف يلقى به فى النار!

ويخشى الوالدان أن تتحقق نبوءة هذا العراف، وعندما يرزقان بإبراهيم، تخاف عليه الأم خوفا شديدا . . فقد أرقتها هذه النبوءة التى سمعتها من ذلك العراف . . ولكن ماذا تفعل . . ؟

لقد لاذت بالصبر، لعل الأيام تثبت خطأ نبوءة ذلك العراف وبدأ ينمو إبراهيم عليه السلام، وبدأ يدرك ما يجرى حوله من أحداث . . إن بابل الأرض التى ولد فيها إبراهيم مليئة بالأصنام . . والناس يعبدون هذه الأصنام المصنوعة من الأخشاب أو الأحجار . .

وتأمل الطفل الصغير إبراهيم هذه العبادات ولم يطمئن قلبه إليها، بل أنه كان يجادل أباه الذى يصنع هذه الأصنام عن قيمتها وأنها لا تنفع ولا تضر، ولم يستطع والده أن يقنعه بهذه العبادة ولا هو استطاع أن يقنع نفسه بأن هذه الأصنام لها فائدة . . أى فائدة، فلماذا جعلوا لها ساحة خاصة يذهبون إليها ويقدمون لها القرابين!؟

وظل إبراهيم يفكر فيما يجرى حوله.. فلا هذه الأصنام جذبته للاعتقاد بها، ولا ما يسمعه من تقديس الناس للملك الذى نصّب من نفسه هو الآخر إلها قد جعله يؤمن بما يؤمن به الناس.. فالأصنام لا تنفع ولا تضر.. والملك «النمرود» مجرد بشر.. يأكل كما يأكل الناس، ويمرض كما يمرض الناس، ويموت كما يموت الناس؟ فكيف يكون إلها؟

لقد فكر إبراهيم عليه السلام فى كل ما يحيط به من مظاهر لم تقنع عقله.. سواء فى القرية التى ولد بها «قدام آرام».. أم فى المملكة التى تتبعها هذه البلدة «بابل».. فرأى أن كل ما يجرى فيها من طقوس وعبادات لا يتناسب مع النظرة السليمة ولا يتواكب معها.

وفكر طويلا..

رأى النجوم وفكّر هل تستحق أن تعبد؟.. إنها تتألق فى السماء، ولكنها تأفل عندما يطلع النهار!

هل يعبد القمر الذى يرسل أضواءه الشاحبة فيبدد ظلام الليل، ولكن هو الآخر يعتريه الأفول!

هل يعبد الشمس التى تضىء الدنيا، وتملأ الحياة بالدفء وأسباب الحياة؟ ولكنها هى الأخرى يتنابها الأفول عندما تنحدر نحو المغيب.

واهتدى أن وراء هذا الكون خالقا عظيما.. هو خالق كل هذا الوجود.. وجعل له قوانينه التى يسير عليها، وهو الذى يحيى ويميت، وهو خالق الكواكب والشمس والقمر وكل ما فى الوجود.

وكان وحى الله.. وانطلق الخليل إبراهيم يدعو قومه إلى عبادة الله جل علاه.. ولم يجد إلا أذانا صماء.. وألسنة خرساء، وعقولا تحجرت فلم تعد تفكر.. فما داموا قد وجدوا أن أباءهم كانوا يعبدون الأصنام، فلماذا يخالفون الأباء.!

وكان من أمال إبراهيم عليه السلام أن يؤمن والده بدعوته.. وأن ينبذ عبادة الأصنام الذى يصنعها بيديه ويعبد الله الواحد الأحد، ولكن الأب سخر من أفكار ابنه.!

وقرر إبراهيم أن يحطم هذه الأصنام.. وأخذ فأساً وتوجه إلى الساحة التى توضع فيها هذه الأصنام، وعندما خرج الناس إلى الجانب الآخر من النهر فى احتفال لهم انتهزها الخليل فرصة وحطم الأصنام، وترك الفأس معلقة فى رقبة كبير الآلهة، حتى يسخرمن قومه، ويقول لهم: ما فعل ذلك إلا كبيرهم!!

ويكتشف الناس حقيقة ما حدث، ويحاول إبراهيم أن يقنعهم بزيف اعتقادهم بأن يطلب منهم أن يسألوا الصنم القائم عن محطم هذه الأصنام..؟!

ويقررون القذف به فى النار!

ويأتى الأمر الإلهى:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وتجمع الناس عندما خبت النيران، وإذا بهم يصابون بالدهشة إن إبراهيم مازال سليما.. مشرق الوجه.. باسم المحيا.. ليس عليه أثر من نار ولا حتى من دخان.. وعلم الملك نمرود بهذه القصة، وأرسل أمرا بأن يمثل إبراهيم بين يديه، لقد خشى على نفوذه وملكه.. وجاءه خليل الرحمن، قوى الإيمان.. قوى الحجة.. شديد الثقة بالله.

ويدور حوار يحاول أن يقنع إبراهيم النمرود بالإيمان بالله.. ويحاول النمرود أن يقنع إبراهيم بأنه هو الذى يجب أن يعبد.. ويدور حوار طويل.. يقول له خليل الرحمن:

إن الله يحيى ويميت. ويجيبه النمرود: وأنا أحيى وأميت.!

وهو يقصد بأن بإمكانه أن يحكم على أى إنسان بالموت وينفذ فيه حكم الإعدام، ويأتى بآخر محكوم عليه بالموت فيأمر بإطلاق سراحه.. وهكذا يكون قد أمات أحد الأحياء وأحيا أحد الأموات!

وقال له إبراهيم الخليل: بأن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب.. فبهت الذى كفر.

لقد ضاق إبراهيم الخليل ذرعا بهؤلاء الناس الذين أعماهم الجهل وضيق الأفق، فتمرغوا فى أوحال الشرك.. وكان قد تزوج من ابنة عمه «سارة». وقرر أن يرحل عن هذه البلاد، وأن يعبر نهر

الفرات متجها إلى أرض كنعان «فلسطين» وصحب زوجته وابن أخيه لوط.. ولأنه عبر نهر الفرات سمى «العبرانى».. كما أطلق لقب العبرانيين على ذريته من بعده من نسل يهوذا، واستقر بمدينة حبرون ومعه زوجته، وفى نفس الوقت ذهب ابن أخيه لوط إلى مدينة سدوم، واستقر بها، وأخذ يدعو الناس إلى عبادة الله وتوحيده.

عاش إبراهيم الخليل فى أرض كنعان فترة من الزمن ثم توجه إلى أرض مصر عندما أصاب أرض كنعان القحط فى إحدى السنوات.. وكانت معه زوجته سارة.. كانت سارة عقيما لم تنجب، ولم يعد لها أمل فى ذلك.. فقد مضت السنوات الطوال ولم يتحقق لها ذلك.. كما أن العمر امتد بها وبزوجها..

لقد أصبح خليل الرحمن شيخا.

وأصبحت سارة عجوزاً!

وفى مصر عاش خليل الرحمن إبراهيم وزوجته سارة، وعلم ملك مصر بقدومهما، فدعاهما إليه، وخشى إبراهيم عليه السلام على زوجته، فقد كانت جميلة رغم تقدمها فى السن، ولكن الله حفظها فلم يقترب منها الملك..

وقرر الملك أن يهدى إلى سارة جارية، وكان هذه الجارية هى هاجر.. وكانت على قدر كبير من الجمال. فوهبتها سارة إلى زوجها إبراهيم.. وعادوا إلى أرض كنعان.

لقد أرادت «سارة» أن يتزوج إبراهيم عليه السلام من هاجر، لعله يرزق الولد الذى كان يأمله.

وبالفعل حملت هاجر بإسماعيل.. وإسماعيل هو جد رسولنا الكريم محمد بن عبد الله عليه الصلاة السلام.. ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

«إنكم ستفتحون مصر، وهى أرض يسمى فيها القيراط، فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما».. وفى قول آخر: ذمة وصهرا.

وتمضى الأيام.. وتنجب هاجر ابنها إسماعيل.. وعرف الخليل أن هذا الوليد وهو جزء منه قد ملأ عليه حياته وغارت «سارة» من هاجر، وطلبت منه أن يبعدها ويذهب بها إلى مكان آخر بعيدا عنها، واختار لها مكانا بوحى من ربه فى واد غير ذى زرع.. وهو مكان (مكة الآن).

وكان عمر إبراهيم الخليل ٨٦ عاما عندما أنجب إسماعيل!.. لقد أخذ إبراهيم زوجته هاجر وابنها إسماعيل، وقطع بهما هذه المسافات الطويلة إلى أن وصل إلى مكان قفر لا ماء فيه ولا زرع ولا حياة.. ولا تحوم فى سمائه حتى طيور السماء.

ووسط هذا التيه المخيف قرر إبراهيم العودة إلى الشام وسألته زوجته:

ـ أأمرك الله بذلك..

ـ نعم.

فأيقنت هاجر بأن الله معها. وأنها ستكون فى حفظ الله ورعايته هى وولدها الحبيب.

ذهب إبراهيم إلى الشام.. وعاشت هى مع ابنها فقاست الوحدة.. والخوف من المستقبل.. ونفذ الماء والطعام، وأخذت تهرول بين الصفا والمروة بحثا عن الماء.. وأعياها المشى والجرى والإجهاد وذهبت لاهثة الأنفاس لتطمئن على وليدها.. فإذا بماء زمزم يتدفق من تحت قدميه.. وأخذت طيور السماء تحوم حول هذا الماء.. وشاهد الناس عن بُعد هذه الطيور المتكاثرة فى الفضاء، فتوجهوا إلى المكان حيث وجدوا الماء.. وكان هؤلاء الناس هم قبيلة «جُرهم» الذى تزوج منهم إسماعيل فيما بعد.. لقد جاءوا وضربوا خيامهم ومساكنهم حول هذا البئر، وآنسوا هاجر وإسماعيل.. ودبت الحياة فى هذا المكان القفر..

وكان يتردد عليهم إبراهيم الخليل.. فقد استجاب الله دعوته وهو يترك زوجته ووحيده فى هذه الصحراء الموحشة عندما نادى ربه قائلا:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وتمضى الأيام.. ويرحل إبراهيم عليه السلام لزيارة ابنه وزوجته، ولكنه يرى رؤيا.. والرؤية تأمره بأن يذبح ابنه إسماعيل.. إنها رؤيا نبى.. ورؤيا الأنبياء صادقة.

وكان عليه أن يمتثل إلى هذا الابتلاء، مع حبه لابنه وقرة عينه، ولكنه أمر الله، وأمر الله لابد أن ينفذ لأننا لا نعرف حكمة الأقدار.. فما دام الله قد أمر فلابد أن يمتثل للأقدار.

اصطحب إبراهيم ابنه إسماعيل خارج مكة، وأخبره برؤياه ووجد الأب الابن ممتثلا لأمر الله:

فقال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وأخرج الأب سكينا، ووضع الابن فى موضع الاستسلام للذبح، ولكن الله فداه بذبح عظيم.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠٣ - ١٠٧].

شب إسماعيل عليه السلام.. وتزوج من قبيلة جرهم.. وتروى كتب السيرة أن إبراهيم عليه السلام كان يزور ابنه من الحين إلى آخر، وأنه ذهب ذات يوم، ولم يكن إسماعيل فى البيت، ووجد زوجته وسألها عن حالها وشكت له عن سوء الحال، والفقر، فأخبرها عندما يعود إسماعيل أن يطلب منه أن يغير عتبة داره!.

وعندما عاد إسماعيل وقصت عليه زوجته أمر هذا الشيخ الذى جاء وسأل عنه، وسأل عن أحواله، وأنه أمرها أن تخبره أن يغير عتبة داره.. فطن إسماعيل أن الذى جاء هو والده وأنه يريد أن يطلق زوجته التى لم تقف بجانبه كزوجة كما ينبغى، فما كان لها أن تتبرم بسوء الحال!

وتقول الروايات أنه جاء مرة أخرى، فوجد إسماعيل قد تزوج من امرأة أخرى.. وجاء أبوه إبراهيم عليه السلام ولم يكن إسماعيل أيضا موجودا فى المنزل، وعندما سألها عن أحوالهم، أثنت على زوجها وعلى حياتها، فطلب منها عندما يعود إسماعيل أن يخبره أن يثبت عتبة داره.. وهذا يعنى أن يحتفظ بزوجته، ويعاملها معاملة حسنة.. وعمل إسماعيل بالوصية، وأنجب منها أولاده.

وهذه القصص التى تروى تعنى أن إبراهيم عليه السلام، كان يتردد على ابنه إسماعيل، وكان حريصا على تتبع أحواله، وكان دائم التردد عليه كلما سنحت الظروف.

وجاء إبراهيم لزيارة ابنه ذات يوم.. وقد اعتزم أن يحقق ما أوحى به الله من إقامة بيت الله الحرام.. لقد قام إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل بإقامة أول بيت وضع للناس، ليكون مثابة للناس وأمنا، ومكانا للعبادة.

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

ويقال أن بعد زواج إبراهيم بهاجر بثلاثة عشر عاما بشرت الملائكة إبراهيم بابن له من زوجته سارة وهو إسحاق، وعندما سمعت هذه البشرى من الملائكة: ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات: ٢٩- ٣٠].

وقد حملت سارة وهى فى سن التسعين، وهذا بالطبع معجزة لأن المرأة يتوقف حملها فى حوالى سن الخمسين!

وقد دفنت «سارة» عندما انتقلت إلى أكرم جوار فى مقبرة بجوار الخليل، وقبرها مازال موجودا حتى الآن.

أما هاجر فقد ماتت وهى فى الستين من عمرها ودفنت بجوار الكعبة.

وبعد أن ماتت «هاجر» و«سارة» تزوج إبراهيم الخليل مرة أخرى، وكان قد بلغ المائة وأربعين عاما. تزوج «قطوه ابنة يقطان»

من الكنعانيين، وتزوج من مكة «صحيون بنت وهب» ورزق من الأولى بخمسة أولاد، ورزق من الثانية بخمسة أولاد أيضا.

أى أن أولاد إبراهيم الخليل عليه السلام كانوا عشرة غير إسماعيل وإسحاق!

وقد مات إبراهيم الخليل عن عمر يناهز ١٧٥ عاما، ودفن فى مدينة الخليل بجوار زوجته سارة، وكان من مشيعيه ابناه إسماعيل وإسحاق.

وقد عاش إسماعيل ١٣٧ سنة، وكان له ١٢ ابنا وبنتا واحدة اسمها نسيمه التى تزوجت من العيص ابن عمها إسحاق، وأنجبت منه ولداً اسمه الروم.

* * *